بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين  
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما  
تفسير سورة الأعراف) الحلقة 16)

موسى عليه السلام  
 بين فرعون الجبار وشعب بني إسرائيل الخَوَّار

|  |
| --- |
| قال الله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (123) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (124) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (125) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (126) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129)﴾ سورة الأعراف. |

الطغيان هو مجاوزة الحد في التسلط والعصيان، كالماء إذا طغى على اليابسة فأغرقها، والبحر إذا طغى فهاجت أمواجه ودمرت ما حوله، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ الحاقة 11؛ والاستبداد هو الاستئثار بالرأي والانفراد بالقرار في الأمر كله، وعدم الرضوخ لناصح أو مرشد، وكلاهما – الطغيان والاستبداد - حالتان نفسيتان تنعكسان على السلوك قسوة وتجبرا واستعلاء، إذا اجتمعتا في امرئ شقَّتْ على الأسوياء معايشته إلا تحت سطوته عبيدا له، أو متمردين عليه أو محاولين التخلصَ من طغيانه، وتعذرت على العقلاء معرفة أيهما الأصل وأيهما الفرع في بنيته النفسية عند معالجته أو مداراته أو مفاصلته وتلافي شره، لا سيما وأعراض هاتين العاهتين تكاد تكون واحدة لدى كل طاغية مستبد، سواء كان ملكا أو حاكما أو قائدا لجيش أو رئيسا لمؤسسة أو زوجا أو زوجة، لأنه يرى كل شيء من خلال فهمه وتصوره ومشاعره ومزاجه المتقلب ونرجسيته الحادة، ويعتقد أنه عظيم حقا بقدرات خارقة يدعيها لنفسه ويعشق بها ذاته، فلا يتسع لخلاف معه، أو نصح له أو معارضة، فإن خولف تصرف تصرف المجانين، وبطش بمخالفه بطش الجبارين، كحال عاد قوم هود عليه السلام في قوله تعالى:﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ الشعراء 130، وحال كل طاغية مستبد في كل عصر، عندما يشعر بالاستعلاء على الناس ويعجز عن التحكم في عواطفهم ومشاعرهم ومكنون ضمائرهم، فتصدر عنه ردود فعل هوجاء غير منضبطة بعقل أو علم أو حكمة، بدءا من ابني آدم إذ طغى أحدهما على أخيه فقتله، ومرورا بالطاغية نيرون الذي قتل أمه وأحرق روما كي يتجاوز مجلس الشيوخ ويستأثر ببنائها على ما يريد، وفرعون مصر إذ انهزم يوم المواجهة مع موسى عليه السلام، أمام ملئه وعامة شعبه، فتخلى عنه سحرته عندما أشرقت قلوبهم بنور الإيمان وأعلنوا إسلامهم، وتحولوا من التحدي السافر للحق إلى التسليم المطلق له، ومن الطاعة العمياء لفرعون إلى البراءة منه والشهادة عليه بالضلال، فأرغى وأزبد وهدد وتوعد كما ورد في سورة الأعراف بقوله تعالى:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ الأعراف 123، خاطبهم مستنكرا فعلهم وتجاوزهم أمره بقوله لهم موبخا: أصدقتم بموسى وأقررتم بما جاء به من غير استئذان مني، ومن حيث قراءة هذه الآية فإن حفصا قرأ لفظ: ﴿آمَنْتُمْ﴾ الأعراف 123، باعتباره خبرا، كما قرأه أيضا في كل القرآن، في البقرة والأعراف والأنفال ويونس وطه والشعراء، وقرأه نافع وأبو عمرو وابن عامر بهمزة استفهام ومَدَّةٍ مطولة بعدها، وقرأه حمزة والكسائي وأبو بكر بالاستفهام وحققا الهمزة وبعدها ألف، على أنه استفهام إنكاري تقريعي من فرعون للسحرة إذ تمردوا عليه وآمنوا برب العالمين ورسوله موسى عليه السلام، ثم عقب بقوله:

﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ الأعراف 123، وزاد في الآية 71 من سورة طه، والآية 49 من سورة الشعراء:﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾، والمكر معناه لغة صرف الإنسان عن الشيء بخداع ونحوه، أي إن انقلابكم على ما كنتم عليه من طاعتي والولاء لي مجرد خديعة كيدية ومؤامرة مبيتة خططتم لها من وراء ظهري مع كبيركم موسى في زوايا المدينة بعيدا عن عيني، ﴿لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ الأعراف 123، كي تخرجوا من مصر أهلها الأصليين من الأقباط والبطالمة وعشائر النوبة، وتبقى البلاد خالصة لبني إسرائيل، مما يبين أن منطلقهم في رفض دعوة الإيمان أولا هو الحرص على السلطة والخوف من افتقادها، كما في قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ يونس 78.

لقد حاول فرعون بقوله هذا صرف الأنظار عن طبيعة المعركة الإيمانية بينه وبين موسى، بتسييسها وجعلها مؤامرة دبرت عليه وعلى عامة شعب مصر، وهي التهمة الجاهزة التي يلجأ إليها دائما جميع الطواغيت إذ يأمرهم المصلحون بالمعروف أو ينهونهم عن المنكر، فيرمونهم بالتآمر ويحاولون تأليب العامة عليهم تمهيدا للتخلص منهم بالقتل أو السجن أو التعذيب، مما يؤكد أن منطلقهم جميعا في رفض دعوة الإيمان هو الحرص على السلطة والخوف من افتقادها.

ثم واصل فرعون توبيخ مؤمني السحرة وتهديدهم، فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ الأعراف 123، سوف تعلمون عاقبة ما صنعتم ومآل ما أوقعه بكم من العذاب، وفسر ذلك بقوله:﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الأعراف 124 [[[1]](#footnote-1)]، أخذ على نفسه عهدا مؤكدا بأن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ثم ليعلقنهم جميعا على جذوع النخل مصلوبين إليها حتى الموت، كما ورد بتفصيل في الآية 71 من سورة طه:﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ طه 71، والقطع من خلاف يعني قطع اليد اليمنى والرِّجل اليسرى، أَو الرِّجل اليمنى واليد اليسرى من كل واحد منهم، وقد قرأ حميد المكي وابن محصن ومجاهد في هذه الآية: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾ الأعراف 124، بفتح الهمزة والطاء وإسكان القاف: ﴿لأَقْطَعن﴾، كما قرؤوا: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ الأعراف 124، بفتح الهمزة وإسكان الصاد وضم اللام: ﴿ولأَصْلُبن﴾.

ولئن كان القرآن لم يرد فيه أن فرعون نفذ تهديده بقتلهم وصلبهم، فإن سياق الآيات يدل على أنه قطع فعلا أيديهم وأرجلهم من خلاف، ثم صلبهم في جذوع النخل لتأكلهم جوارح الطير وكواسرها، يؤيد ذلك قولهم عند مواجهة القتل:﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِين﴾ الأعراف 126، وما روي عن ابن عباس بقوله:"فرعونُ أوَّلُ من صَلَب وقَطَع من خِلافٍ"، وقوله:"كَانُوا أَوَّلَ النَّهَارِ كَفَرَةً سَحَرَةً وَأَصْبَحُوا آخِرَ النَّهَارِ شُهَدَاءَ بَرَرَةً".

لقد استفرغ فرعون كل طاقته في التهديد والوعيد لعلهم يخافون ما هددهم به فيتراجعون عن إيمانهم، إلا أن ذلك منه لم يزدهم إلا وثوقا بما رأوه من صدق موسى وبينات آيات ربهم، وما ملأ قلوبهم من الإيمان، فأجابوا فرعون في تحد واستعلاء ووثوق بسلامة موقفهم:﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ الأعراف 125، لقد كان السحرة يعرفون صنعتهم القائمة على التخييلات الوهمية، وأباطيل الحيل والخدع الجوفاء التي مارسوها ويمارسها غيرهم، فلما رأوا فعل الله القادر المقتدر فيما أتى به موسى، ورأوا فعل العبد العاجز الضعيف فيما ما حاولوه من السحر بأمر فرعون، بلغ من وضوح الرؤية لديهم ما ميزوا به بين الحق والباطل، فانقدحت أنوار الإيمان في قلوبهم، وأيقنوا أن الحق حق في جوهره وشكله وهدفه وما ينتج عنه، وأنه لا يحتاج إلى من يدافع عنه؛ لأن من طبيعته أن يبطل الباطل ويبهت المبطلين، وما داموا منقلبين في كل الأحوال إلى الله، وفرعون معهم منقلب كذلك، والموت حق والبعث حق والحساب والجزاء حق، فهم قادمون على رب عادل رحيم كريم لا يخلف وعده، ولا يتخلف وعيده، لذلك اختاروا الركون إليه سبحانه، وأقبلوا عليه تائبين مستسلمين واثقين، ثم:﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ \* إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الشعراء 59 -51، أي لا حرج علينا ولا ضرر من تهديدك ما دمنا على الحق، ولا ضيم إن عدنا إلى الله مقتولين أو مقطعة أطرافنا من خلاف أو معلقين على جذوع النخل، مؤملين أن يغفر الله ما تقدم من ذنوبنا بما كنا أول المؤمنين من قوم فرعون في مصر، وعاد فرعون إليه ظالما كافرا معتديا؛ لأن عنده تعالى الجزاء الأوفى لصبرنا وثباتنا، والعذاب الأشد لمن اعتدى علينا.

ثم خاطبوا فرعون بحقيقة نفسه المريضة المتغطرسة بقولهم:﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ الأعراف 126، أي: إنك يا فرعون ما أغضبك منا وجعلك ناقما حاقدا علينا إلا إيماننا بما جاءنا به موسى من الآيات الدالة على قدرة الله وصراطه المستقيم.

وفعل "تنقم" في هذه الآية من باب: فرح وضرب، نقِمَ ينقَم ونقَم ينقِم، قرأها الجمهور بكسر القاف "تنقِم"، كما في قوله تعالى:﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ المائدة 59، وقرأها الحسن وأبو حيوة وأبو اليسر هاشم وابن أبي عبلة بفتح القاف "تنقَم"، والمعنى واحد.

ثم فزعوا إلى الله وقد أسلموا وجوههم إليه سبحانه في لحظة إشراق توجت أرواحهم بالنور وغمرت وجدانهم بالشوق وشحنت وعيهم بالمدد فتضرعوا إليه داعين:﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ الأعراف 126، سألوه سبحانه أن يصب عليهم الصبر صبا كما يصب الماء على النار فيطفئها، كما في قوله تعالى عن دعاء جنود طالوت إذ واجهوا جيش جالوت فتضرعوا إلى الله أن يثبتهم ويقوي صبرهم على شدة القتال والقتل وقالوا:﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، والمقصود أن يهب الله لهم من الصبر ما يذهب به عنهم آلام ما يفعله بهم فرعون من التعذيب والتنكيل والتقتيل.

لقد ارتفعوا عن صغائر الدنيا وزينتها، فلم تهن لهم نفس، ولم يضعف لهم إيمان، ولم يحفلوا بما ينتظرهم من العذاب إن تحدوا فرعون وعصوه، وما يعدهم به من التكريم والمنزلة إن أطاعوه، واختاروا ما عند الله، فسألوه أن يثبتهم على الإيمان قائلين: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ الأعراف 126، واجعل خاتمة أمرنا أن تتوفانا على الإسلام وألا تفتننا عنه بما يصيبنا من العذاب.

إن من طبيعة أي معركة أن يكون فيها منتصر ومنهزم، وأنصار للمنتصر يتكاثرون، وضعف للمنهزم في نفسه وأعوانه، كذلك كان أمر موسى عليه السلام وقد ظهرت حجته وانتصرت آيته وتكاثر أتباعه بمن آمن به من السحرة، ومن اطمأن إليه وانحاز لصفه من بني إسرائيل، فانشلَّت إرادة فرعون هلعا ورهبة لصولة الحق وخوفا من موسى وآياته، ويقينا يكتمه ولا يبديه لملئه بأنه ليس إلها ولا قدرة له أو قوة على مواجهة القدرة العلية التي تمد موسى بالغلبة والنصر، فلم يفكر في الانتقام منه كما فكر في الانتقام من السحرة، ووقف في أمره عاجزا مشتت الفكر مشلول الإرادة، لولا أن المتملقة من ملئه كعادتهم في كل عصر مع الحكام والطواغيت نبهوه إلى خطورة ذلك عليه وعلى ملكه: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ الأعراف 127، قالوا لفرعون محذرين من موسى وبني إسرائيل الذين تكاثروا حوله: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الأعراف 127، والهمزة في أول قولهم: ﴿أَتَذَرُ﴾ الأعراف 127، للاستفهام الإنكاري التعجبي التحذيري والإغراء بالقضاء على موسى وقومه، وفعل "تذر" من فعل "وَذَرَ، يَذَرُ" أي: ترك، يترك، قَالَ ابْن السِّكِّيت فِي "إصلاحِ الْأَلْفَاظ": يُقَال: (ذَرْ ذَا وَدَعْ ذَا، وَلَا يُقَال وَذَرْتُه وَلَا وَدَعْتُه). وقد أماتت العرب من هذا الفعل صيغ الماضي والمصدر واسم الفاعل، فلا يقال: وَذَر وَذْراً فهو واذر، وإنما يقال ترك تركا فهو تارك، واستعملت منه صيغة المضارع كما في هذه الآية ﴿أَتَذَرُ مُوسَى﴾ الأعراف 127، وصيغة الأمر كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنْ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ) البقرة 278، وقوله عز وجل:﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ المزمل 11. أي قال الملأ محتجين على ما ارتكب فرعون من خطأ سياسي يهدد سلطانه وسلطانهم: " أتهتم بالانتقام من السحرة الذين عصوك فآمنوا وهم المستضعفون لدينا وتهمل أمر موسى ومن اتبعه من بني إسرائيل وقد تكاثروا حوله وازداد بهم قوة، فتتركهم أحرارا يفسدون العامة عنا ويصرفونهم عن ديننا؟ ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ الأعراف 127، ويتركك وآلهتك[[[2]](#footnote-2)] للهزيمة والضياع والخسران والاندثار ثم ينصرف عنك منتصرا مع أتباعه.

والفعل في: ﴿وَيَذَرَكَ﴾ الأعراف 127، قُرِئ بفتحِ الراءِ عند الجمهور عطفا على قوله تعالى:﴿لِيُفْسِدُوا﴾ الأعراف 127، وسكَّنها بعضهم للتخفيف فقالوا: ﴿وَيَذَرْكَ﴾، وضمها آخرون للحال فقالوا ﴿وَيَذَرُكَ﴾ أي: أي وهو يتركك.

فما كان من فرعون إلا أن استُفِز بقول ملئه واستشاط غضبا وحنقا ورد عليهم: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ الأعراف 127، سنقتل أبناء الذين آمنوا بموسى، والمقصود ذكورهم مطلقا بقرينة مقابلتهم بالنساء في قوله من بعد: ﴿وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ الأعراف 127، ونستبقي إناثهم في الحياة، والهدف إضعاف مجتمع بني إسرائيل باستئصال رجاله والاحتفاظ بنسائه للخدمة والتسري[[[3]](#footnote-3)]، وهو ما فصله تعالى أيضا بقوله في الآية 25 من سورة غافر:﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾، وكان الفراعنة عقب سيطرتهم على السلطة أول أمرهم يفعلون ذلك ببني إسرائيل انتقاما منهم لتعاونهم مع الملوك السابقين من الهكسوس، فأنقذ الله موسى حينئذ من القتل بأن أوحى إلى أمه أن تلقيه في اليم ليربيه فرعون، بقوله تعالى:﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ طه 39، ثم بعد حين كفوا عن هذا الفعل بعد أن ذل بنو إسرائيل وأسلسوا لهم القياد، إلا أن هذا الفرعون عزم أن يعيد إيقاع هذه العقوبة عليهم من جديد لاتباعهم موسى، مؤكدا لملئه قوته واستمرار تحكمه في الجالية الإسرائيلية التي بدأت ترفع رأسها بظهور نبي منتصر منها بقوله:﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ الأعراف 127، أي مستعلون عليهم غالبون لهم، مسلطون ومسيطرون ومهيمنون عليهم.

 لقد كان فرعون داهية متمرسا على الحكم وأعرف بنفسية محكوميه، فلم يذكر موسى بسوء خوفا منه، وإنما هدد أتباعه من بني إسرائيل توهينا لهم وهو يعرف جيدا أن شجاعتهم طارئة لما ألفوه من ذلة العبودية طيلة عقود الاغتراب والاضطهاد، وأن الأصل في طبعهم القابلية للاستعباد، وأرسل بذلك أيضا رسالة إلى غيرهم من أقباط مصر وسكانها الأصليين يمنيهم بالتخلص من ذكور بني إسرائيل -وإطلاق أيديهم في نسائهم خدمة وتسخيرا وتمتعا، كي يزدادوا تمسكا به وولاء له. وذلك ما انتبه له موسى عليه السلام، فتدخل مذكرا بوعد الله للصابرين من بني إسرائيل ومثبتا لهم على ما اختاروه من الحق: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ الأعراف 128، إنها وصية نبي من أولي العزم يوحى له من فوق سبع سماوات، وليست مجرد نصيحة عالم أو فقيه أو حكيم، وهي بذلك فريضة ملزمة، أن يستعينوا بالله وأن يصبروا، والاستعانة بالله على التكاليف والصبر في الله عليها كانا دائما صميم دعوة الأنبياء والمرسلين والصالحين في جميع الأمم، بل العبادة كلها استعانة بالله عليها وصبر عليها، قال تعالى يعلمنا الدعاء بهما :﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة 5، وقال مخاطبا بهما كافة المؤمنين:﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ آل عمران 200، وقال آمرا بهما رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ يونس 109.

ثم حاول موسى معالجة ما يعانونه من إحباط واكتئاب لما مكن الله لفرعون وقومه دونهم في أرض مصر بقوله: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الأعراف 128، إن أرض مصر وغيرها ملك لله تعالى، هو الذي يمكن فيها بحكمته التي لا يعلمها غيره لمن يشاء من عباده، ولكن عاقبة الصراع بين الحق والباطل دائما أن تكون نصرا لأولياء الله المتقين الصابرين ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ الحج 41.

وقوله تعالى: ﴿يُوِرِثها﴾ الأعراف 128، من حيث القراءة عند السبعة ساكنة الواو خفيفة الراء مكسورة، وعند الحسن وحفص عن عاصم ﴿يوَرِّثـُها» بتشديد الراء على المبالغة، وعند غيرهم بفتح الراء ﴿يورَثها﴾.

لقد خبر موسى نفسية قومه من بني إسرائيل وسبر عناصر الضعف والقوة فيهم، بحكم نشأته بينهم وبما يوحَى إليه من ربه فيهم، فحاول تثبيتهم ومعالجة ما بهم من خور وقابلية للذلة، بتعريضهم لنفحات الإيمان وتذكيرهم بأصل عقيدتهم التوحيدية التي توارثوها عن آبائهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وقد كانوا قدوة لهم في الصبر والاستعانة بالله، إلا أن قابلية الخنوع والركون إلى ذلة الاستعباد تغلبت في نفوسهم، فلم يتذكروا من تجاربهم وعقيدتهم إلا ما عاشوه من محن على يد الفراعنة، ثم أسقطوا مسؤولية ذلك على موسى وحملوه وزرها، كعادة الشعوب الخائرة عندما تدعى للمعالي فتتنكر لمن دعاها وتركن إلى المسافل، ثم ردوا عليه تشكيا منه وتضايقا به وتطيرا بوجوده بينهم:

﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا ﴾ الأعراف 129، وفعل ﴿ أُوذِينَا﴾ الأعراف 129، مبني للمجهول فاعله فراعنة مصر، أي لحقنا الأذى منهم عقب سقوط حكم الهكسوس وقبل أن تأتينا برسالة الله، وفي فترة ولادتك أيضا إذ استباح فرعون نساءنا وقتل أبناءنا واستخدم رجالنا في الأشغال الشاقة، ثم واصلوا تبرمهم من نبيهم موسى وتطيرهم من ظهوره بينهم، فقالوا: ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ الأعراف 129، أي: بعد أن خف عنا الأذى فترة وجيزة تجدد علينا بمجيئك ومحاربتك فرعون وإثارتك غضبه وتركك لنا بين يديه يهددنا باستباحة نسائنا وعودة القتل في ذكورنا.

لقد عاد بنو إسرائيل إلى ما ألفوه من الذل والجبن والخور والركون إلى الضعة، فتخلوا عن نبيهم وتنكروا له وتطيروا به، وتشاءموا بمقدمه، وعدوه سببا مباشرا لما نالهم بمجرد سماع فرقعة السياط على ظهورهم وصليل السيوف فوق رؤوسهم، قال تعالى عنهم ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف 131، وذلك حال الراكنين إلى المهانة والخنوع من أجل العلف والسلامة في كل عصر، من الذين ضرب الله لهم المثل بأصحاب القرية إذ جاءها المرسلون فكذبوهم:﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ \* قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ يس 18 - 19، والمثل بقوم ثمود إذ جحدوا نبيهم صالحا عليه السلام: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ النمل 47، ومثلا من المنافقين الذين كانوا مندسين في جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال عنهم الحق تعالى:﴿ ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا \* مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ النساء 78 - 79.

إنها النفوس الخائرة المهزومة ذاتيا أو القوية المحبطة بالهزيمة إذا ما استسلمت لها، والشخصيات المضطربة في كل قوم وفي كل عصر ما لم يتجذر الإيمان في أعماقها ولم تستنر به ولم تهتد بهديه، فتلجأ مستجيرة بالقوة المادية المنظورة بيد الباطل وأهله، تتملقها وتخنع لها وتتصنع في مدحها ومخاطبتها، وتتنكر للقوة الحقيقية التي لا تبصرها بيد أصحاب الحق، فتتخلى عنهم أو تحاربهم وتعين الباطل عليهم، ثم تجد نفسها أدت من أجل سلامتها ثمنا أغلى من ثمن سعيها إلى الحرية والثورة على الظلم، ولذلك حاول موسى عليه السلام تثبيتهم وتقوية عزائمهم ورفع معنوياتهم: ﴿قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ الأعراف 129، ولفظ "عَسَى" في الآية فعل ماض ناقص مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر، وربكم اسمها و﴿أَنْ يُهْلِكَ﴾ الأعراف 129، مصدر مؤول من "أن والفعل" في محل نصب خبرها، وتعبير الوحي بفعل من أفعال الرجاء في جواب موسى هو "عسى" فَتْحٌ لباب الأمل في وجه بني إسرائيل اليائسين من هلاك فرعون واندثار ملكه والنجاة من شره، وإشارة إلى وعد لهم بنصر وتمكين مرتقبين لو أطاعوا وثبتوا صابرين محتسبين بقوله بعدها: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الأعراف 129، ويختبركم بالاستخلاف في الأرض بعد عدوكم، إشارة إلى ما سيكون من استخلافهم في زمن داوود وسليمان عليهما السلام، وفتحهم بيت المقدس مع يوشع عليه السلام [[[4]](#footnote-4)]. ثم حرضهم على مزيد الطاعة والصدق وحذرهم من الخيانة والعصيان وعرَّض بما قد يسقطون فيه من الفساد إن مكن الله لهم فقال: ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ الأعراف 129، فيرى مدى وفائكم بما أخذ عليكم من عهود، ومقدار قيامكم بما أمرتم به من العدل.

1. - الصَلْب أداة تعذيب وقتل بطيء، يربط فيه الضحية معلقا على صليب خشبيّ كبير أو جذع نخلة ويُدقّ عليه فيها بالمسامير ويترك على هذا الحال حتى الموت. [↑](#footnote-ref-1)
2. - روي أن فرعون كان قد شرع لقومه عبادة آلهة من الكواكب والنجوم والأصنام والأوثان، ونصب نفسه ربا فوقهم جميعا كما في قوله تعالى عنه:﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى \* فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ النازعات 23 – 24، وقوله عز وجل:﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ القصص 38. [↑](#footnote-ref-2)
3. - التسري هو إعداد المرأة أو استعمالها للتمتع بها بدون زواج. [↑](#footnote-ref-3)
4. - هو نبي الله عليه السلام يوشع بن نون بن أفراثيم بن يوسف بن يعقوب، بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام، كما ذكر ابن كثير في كتابه:"قصص الأنبياء"، قاد بني إسرائيل بعد وفاة موسى وهارون عليهما السلام، وكان فتى لموسى عليه السلام ذكره الله في القرآن من غير أن يصرح باسمه بقوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ الكهف 60، وثبت في الصحيح من رواية أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم: من أنه يوشع بن نون. [↑](#footnote-ref-4)